

ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، في ضجة ما بعدها
ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق الحيا ، وقد نضبا شملة السكون
الحامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق
متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .
وإني أتمثله ، في موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء
المستبدين ، انبعث يفرض علينا سلطانه في إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر
تستنزف قوانا في مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن
تأخذه بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن
طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب
فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .
مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظلت في مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش ، كما تعيش التواريخ في تفرد ، أنعم في مثابتي بأنس وصفاء .

محبول هو من نعت النساء بصفات الضعف ، والدعة ، واللين .

إنهن . أعزك الله . نمرات متمردات ، دائمات الشكاية

والتأفف ، همهن الأكبر في يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن . إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن

الأظفار ، على رأس الحلك الدقيق ، كما يشخذ السنان الدرب ،

نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

إنهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندی الحصيف ،

يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلبي به ، دعوة الداعي .

متى نفخ في البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الحضاب الأحمر يطلين به

شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجنبك في براءة الذئب

من دم ابن يعقوب . والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة

وتجمل . . . ليس إلا .

لا . . . لا تسمع لهن .

إنهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، يندين به

شفاهن الظامئة إلى فتك وانتهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم في الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم في أولادهم يعيشون ،

وفي أولاد أولادهم ، هم مستمررون متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم

الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جناء رعاديد ، يتهيبون الموت وجلة قلوبهم ،

فيخلقون هذا الوهم ، يتعزون به عن الموت ، ويقصون من

دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ،

أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبى عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هي إلا شر

الحياة ، ووجهها المكفهر العبوس .

أليست هي بطونا خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هي أجساماً عارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هي ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى
صقل وإعداد ؟

أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندي
لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب
مسرقة تسلمهم إلى إعياء وضنك .

وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التي أحياها ، وأنا فرد أعزل ،
أراني ، في هذا اليوم ، وقد خرجت نفسي عن طاعتي ، كدابة
حرون تأبى السير في طريقها المرسوم .

لا غرو إذن ، أن ألتق ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ،
أستنكر منه تطاوله على نقودي ، يبعثر في السوق ، خلال
ساعة ، ما اقتصدته في شهور .

وتشهدني القرافة ، مع الأصيل ، أسلك دروبها العفراء ،
محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها
الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً في لفائف من حرير ، ومن
خلفي رجل بطين ، قصير القامة ، مكتنز العود ، يتقنى أثرى ،
متلاحق الخطو ، وقد توج رأسه سبط الفاكهة والتمر ، على
حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،



ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره
العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من
عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وثيد ، وله من عينيه
حدقتان تدوران في محجريهما ، في تلصص ، وعلى شفثيه ،
يتحلب ريقه كما يتسائل لعاب الثور لمراى أعواد البرسيم النضير .
وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرني حشد
العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا في هرج وهياج
كأنهم قطيع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى
عواهما الكثيب .

وسرعان ما أدفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ،
وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أنحاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل
فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى فى المعركة بالنصيب الأوفر ،
لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ،
فإن تفقدته عيناك ، ألفيته منكمشاً فى ركن من الجبانة قصى ،
خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد
أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها فى غفلة منى ، يلتهمها
هانئاً ، وبين القضمة والقضمة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضاها الشهي ، يرطب به حلقة الغصان .
 فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ،
 أنثر عليها أعواد الريحان ، وعن كذب يتربع قارئ ضريير ،
 يرتل آيات الله المحكمات ، أنا يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ،
 وأنا يتقاصر ويشرب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس
 إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل في جلستي
 تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطير إلى عالم الخيال ، فيرتد بي الزمن إلى عهد
 خلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت في مكاني قاب
 قوسين من اللحد اللحد الذي سوف يضمني حتماً إليه .
 وكأني أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها
 العفاء والصمت ، وتندفع في حركة وحديث ، وكأن شريان
 الحياة لم ينقطع عنها ، فهي تسعى بين يدي سالف سعيها ،
 وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعي ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، في عصرنا الحديث ، إذا
 قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها في
 حفظ ما استودعت من العطب والضياح .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة في معناها وجوهرها ،
تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسى أمسح دمة حزن فرت من عيني .
واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتنى أصافح وجوهاً
جاءت إلى المقابر مثلى ، تحي موتاه من الأعزاء الراحلين .
وتعثرت نظراتى فى تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ،
بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد
تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهوى شاهداه ، فلم ينبق
منه ، إلا أنقاض أحجار مثلمة ، كأنها أسنان نخرة صفر ،
انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم
حول الجحش ، ويتشمم جداره ، وقد امتد خرطومه البليل إلى
فجوات القبر يتفقدتها فى هوس .

وما عثم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه
المحموم ، واقتعدها يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ،
وتقلصت عضلاته ، واشرب رأسه يرأى بعينيه ، يصافح خطرات
النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو صوت غضوب .
وهزنى ما رأيت هزة ، زلزلت كيانى ، فقفزت أعدو ثائراً ،

أتوعد الكلب في صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ،
فأصابه في رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى
عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .
ومثلت أمام القبر ، ووقفت في صمت أتملاه ، ودارت في
رأسى خواطر .

حقاً ما أحزنه من قبر بين القبور .
أين هو من هذه الأجداث التى تزينها الورود والرياحين ،
وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .
أكذلك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟
يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .

البنون . . . البنات . . .

وتراجعت عن القبر مشئت الفكرة . . . تائه النظرة . . .

وقد عرثنى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب
المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن
مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . .
أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !